سيرة ذاتية أم وثيقة سياسية؟

obeikandl.com

السيرة الذاتية في بدايتها كانت كتابة اعترافية دينية يسبر فيها الفرد أغوار ذاته للتعرف على مواطن ضعفه الإنساني وليقيم علاقة سليمة مع الخالق. ورغم أن تلك الكتابات انفصلت لاحقا عن أصولها الدينية وأصبحت شكلا من الأشكال الأدبية طرقه الأدباء والمفكرون والساسة فقد احتفظت تلك الكتابات بسمتين أصيلتين وهما محورية الذات وصيغتها الاعترافية. وفى زمننا هذا نَحتْ السيرة مناحى مختلفة وتعددت أساليبها وأهدافها. فإلى جانب السير التى مازالت تلتزم بالسمات الأساسية ظهرت أخرى تهدف إلى الإثارة والكسب السريع. أيضاً نجد أن هناك من بين القادة والمرموقين من الأفراد من يحاول استباق التاريخ بكتابة سيرته الذاتية حتى لا يترك لأقلام الآخرين حرية تسجيل الكلمة الفاصلة عنه، وقد ظهر فى السنوات الأخيرة عدد غير مسبوق من سير القادة والملوك والمشاهير من الأفراد.

وتستدعى طبيعة وأهداف ذلك الشكل من الكتابة التساؤل عن مقصد مانديلا من نشر سيرته ولم تمض شهور على توليه السلطة. فسيرته كما نقرؤها ليست اعترافية والذات ليست محورها فهى ترتكز على الحدث. كما أن مانديلا أصبح رمزا تمتلكه البشرية جمعاء لذلك

obeikandi.com

يُستبعد أن تكون سيرته محاولة منه لاستباق المؤرخين خوفا من التشويه أو سوء الفهم.

في سياق سرده للأحداث يذكر مانديلا أنه أثناء تواجده في المعتقل اقترح زملاؤه عليه كتابة مذكراته احتفاءً ببلوغه الستين على أن يتم تهريبها خارج السجن والبلاد لنشرها كي تعمل على إزكاء شعلة المقاومة التي كانت قد خفتت آنذاك. ونجح مانديلا وزملاؤه فيما اعتزموه. غير أن تلك المذكرات لم يكتب لها أن ترى النور. يقول مانديلا إن تلك المذكرات هي العمود الفقري لكتابه الحالي، وعلى ذلك فلنا أن نفترض أنه رغم أن كلتا السيرتين قد تحوي نفس الأحداث الرئيسية إلا أنه ربما قد جرى تعديل بالحذف أو بتغيير بؤرة التركيز لأن المذكرات الحالية أريد بها تحقيق هدف مختلف عن ذلك الذي هدفت إليه المذكرات الأولى.

وبقراءتنا للسيرة الحالية يتبين لنا أن هدف مانديلا الأول هو تبيان وترسيخ وتبرير سياسته التوفيقية التي التزم بها واتبعها. وتلك السياسة ليست وليدة الساعة، وليست مسايرة للظروف والمتغيرات لكنها تنبع من عقيدة التزم بها المؤتمر منذ نشأته واعتنقها مانديلا

فكرا عقلانيا وأساسا واقعيا لكفاحه منذ بدايه تسييسه، كما عمقتها التجربة وقوى التزامه بها نضج الفكر وشمولية تجربته الإنسانية.

لم يشب مانديلا على كراهيةٍ للبيض. بل على العكس، فإن تجربة طفولته وصباه كما يصورها هى تجربة رعوية لم يفسد صفوها أى شعور بالقهر ولم يكتسب من نشأته الأولى عوامل أثرت فى اختياره طريق الكفاح سوى حس راسخ بالعدالة وإيمان بالديموقراطية وكبرياء لكونه إفريقيا أسود. أما خلال سنوات دراسته بالمدارس والكليات الإرسالية فقد زاد إعجابه بالرجل الأبيض وكان منتهى طموحه أن يصبح «جنتلمان» إنجليزيا أسود.

ولعل من الأهمية بمكان ملاحظة تزامن تفتح وعيه والتزامه السياسى مع دراسته للقانون فى جامعة Wits وقد تزامنت تلك الفترة أيضا مع إجراءات قمعية متزايدة من قبل السلطة لترسيخ نظام الأبارتايد. وربما يسترعى الانتباه أيضا أن زملاء مانديلا من غير السود قد لعبوا دورا كبيرا فى تسييسه. أى أن اختيار مانديلا لطريق الكفاح لم يقرره شعور شخصى بالظلم ورغبة شخصية فى مقاومة من يمارسونه لكنه نتج فى المقام الأول عن عقيدة أيديولوجية فى عدم عدالة الأبارتايد

ورغبة منه في إقرار العدالة. فهو يذكر في كل مناسبة أن عداءه لم يكن لأشخاص معينين أو لإثنية بذاتها. لكنه اختار أن يكافح نظاما باطلا ليقر نظاماً عادلا. بل إنه كان يرى أن البيض أنفسهم وهم يمارسون الأبارتايد هم ضحايا للكراهية والتحيز وضيق الأفق.

لا عجب إذن أن مانديلا في سرده للأحداث لا يتوقف لوصف تفاصيل الممارسات الدموية الشريرة للبيض والتي نقرأ عنها حتى في كتابات بعض البيض أنفسهم، ولا يتخير وقائع بعينها كأمثلة لمعاناة الأفارقة. فإن أكثر الأمثلة التي يذكرها دموية هي مذبحة شاربڤيل التي اقترفها نفر قليل من رجال الشرطة تملكهم الخوف، كما يقول، من كثرة عدد المتحدّين من السود فأطلقوا الرصاص وكان عدد الضحايا أقل من مائة قتيل، وفي المقابل فإن مانديلا يسرد بإسهاب وحشية الممارسات الدموية لأعضاء الإنكاثا من الزولو بطريقة تقشعر لها الأبدان.

ومن ناحية أخرى يعطي مانديلا أمثلة عديدة لعظمة بعض رجال القانون البيض وعدالتهم ومن بينهم بعض القضاة الذين حاكموه. كما يسجل كفاح ومواقف عدد من البيض الذين عملوا معهم وتعرضوا للسجن والنفي والموت.

يتضح إذن أن مانديللا لا يريد التركيز على أو إحياء ممارسات بشعة لنظام وصفه هو بأنه من أعتى الأنظمة التى عرفها التاريخ بل يريد التأكيد على لا إثنية عناصر الشر وعناصر الخير وأن يؤكد تلك المبادئ التى قام عليها المؤتمر والتى كافح هو وغيره من أجلها لإقامة نظام عادل ديموقراطى تعيش الأعراق المختلفة فى ظله حياة عدالة وكرامة وأمان.

وعلى ذلك فسيرة مانديللا ليست ذاتية لكنها تأطير وتأصيل تاريخى وعقائدى وواقعى لسياسته التوفيقية التى التزم بها منذ توليه السلطة.

وقصة كفاح مانديللا وشعب جنوب إفريقيا كما ترويها السيرة هى «أوديسا» الواقع المعاصر قادها شعب عاش مغلوبا على أمره لمئات السنين وسلب حقوق مولده وكيانه الإنسانى ضد نظام من أشرس الأنظمة وأشدها قوة وثراء وصلفا. وتمكنوا وهم الضعفاء الفقراء المحتقرون ليس فقط من زعزعة النظام والإتيان عليه بل أيضا من كسب مؤازرة شعوب الأرض وحكوماتها ودفعها لتبنى قضيتهم سواء كان ذلك عن عقيدة أم مسايرة للتيار العام.

لم ينظر مانديللا للمعركة على أنها معركة بين مجموعتين من البشر فقط لكنه نظر إليها على أنها معركة بين أيديولوجيتين يميزهما التباين والتشابه فى نفس الوقت. فقد قام الأبارتايد على أساس عقيدة سمو الجنس الأبيض ودعمت تلك العقيدة أسطورة دينية تصنف البشر تصنيفا هرميا يتربع الجنس الأبيض فيه على القمة ويرتب بقية البشر فيه بين القمة والقاع الذى يحتله السود. وعلى هذا فرغم تقديس الأفريكان للعدالة والديموقراطية فإن القوانين التى تجسد هذين المفهومين هى قوانين مصدرها البيض ولحماية البيض. وعلى الجانب الآخر تتلخص أيديولوجية المؤتمر ومانديللا فى التأكيد على المساواة بين البشر وأن العدالة والديموقراطية هما من أجل حماية حقوق الفرد والمجتمع بغض النظر عن اللون والعرق. ومن خلال كفاحه أثبت شعب جنوب إفريقيا حذقا غير عادى ومهارة فى التنظيم والتنظير والممارسة مما أجبر عدوهم والعالم أجمع ليس فقط على الاعتراف بهم كنظراء بل على الإعجاب بهم والتسليم لهم.

ولعل تجربة المعتقل التى فاق عدد سنواتها عدد سنوات الكفاح خارج المعتقل هى التى تشعر القارئ ليس فقط بضآلته أمام عمالقة الإرادة

والفكر السليم، لكنها تجدد فى النفس الثقة بالإنسان والعقيدة. فخلال سنواتهم الطويلة فى معتقل جزيرة روبن النائية القاسية الموحشة حيث اختير لها عتاة السجانين والضباط، نقل مانديللا وزملاؤه المعركة هناك حيث لم ينجحوا فقط فى الحفاظ على آدميتهم وتأكيد حقوقهم، بل إنهم حولوا المعتقل إلى جامعة لتربية النفوس والعقول والأجساد، ولتثقيف وتعليم المسجونين السياسيين، وتسييس وتعليم عتاة الإجرام من السجناء العاديين. فإنهم بالإضافة إلى استغلال وقتهم لمواصلة دراستهم أقاموا المساجلات السياسية والثقافية والاجتماعية والتراثية ووضعوا منهجا متكاملا للدراسة. كما قاموا بتكوين لجان للاستشارات القانونية، وتكوين منظمة داخلية للمؤتمر وقيادة عليا له، وعقد المباحثات مع أعضاء المنظمات الأخرى لرأب الخلافات. وفى نفس الوقت عملوا جهدهم كيلا يفقدوا الصلة بالتنظيمات والأحداث خارج المعتقل ولكى يبقوا المعركة حية بعد أن أُعتقل ونُفى جميع الزعماء. وانتهى الأمر بأن ترك القائمون عليها شئون الجزيرة وحفظ النظام بها للسجناء أنفسهم. أما بالنسبة للعالم الخارجى فقد ارتقت الجزيرة وقاطنوها إلى منزلة الرمز والأسطورة مما أجبر العدو فى

obeikandl.com

النهاية على أن يسعى إليهم وأن يدرك أن لابديل للتفاوض معهم وللخضوع لإرادة الحق.

أتى الأفارقة وعلى رأسهم مانديللا مائدة المفاوضات مسلحين بالعلم والمعلومات والخبرة والعقيدة. أتوها وهم يعلمون عن عدوهم أكثر مما يعلم هو عن نفسه وعنهم. ويقول مانديللا فى ذلك الصدد «لم نأت الاجتماعات متسولين لكن مواطنين لنا الحق فى مكان متساو على المائدة». أصر مانديللا ورفاقه على عدم قبول اشتراطات مسبقة ورفض المساومة، كما رفض أن تتوقف النشاطات العسكرية كشرط لبدء المفاوضات ولم يملك الطرف الآخر أمام الوعى والإصرار سوى الخضوع والتسليم.

ومع انبهار القارئ إذ تتفتح أمامه تلك السيرة البطولية فإنه يتوقف عند بعض النقاط المحيرة ولعل أهمها بالنسبة لى كقارئة عربية بعض ما يأتى فى سياق رواية مانديللا. فإنه يذكر أنه إبان اختفائه فى مزرعة ريفونيا كان معلمه الأول فى فنون حرب العصابات هو آرثر جولدريتش الذى كان ضمن الجناح العسكرى لحركة بالماخ الصهيونية فى فلسطين والذى خاض حرب العصابات هناك. كما يذكر أيضا

ضمن الكتب التى قرأها وأفادته كتّاب الثورة لمناحم بيجين الذى يمتدحه. لم يتوقف مانديللا ذو الحس المرهف بالعدالة لحظة ليفكر أن هذين الشخصين اللذين حازا إعجابه قد خاضا حربا ضد سكان فلسطين الأصليين أعتى من تلك التى خاضها الأفريكانيون ضدهم وأن أيديولوجية الصهيونية تتماثل تماما مع أيديولوجية الأفريكانيين البيض التى عانى من جرائمها شعبه ما عاناه.

ومن النقاط المحيرة أيضا موقف مانديللا من الحركات المناوئة للمؤتمر وبالذات من منظمة الـ P.A.C -التى قادها سوبوكوى معلمه ورفيق كفاحه- والتى كانت تتمتع بشعبية بين القادة الأفارقة فى وقت لم يكونوا يعلمون فيه الكثير عن المؤتمر. فإن مانديللا يصور تلك المنظمة للقارئ، كما فعل مع القادة الأفارقة ومن بينهم جوليوس نيريرى، على أنها منظمة صبيانية يعوز أعضاءها الحنكة ومراعاة الصالح العام، وأن همَّ أعضائها الأكبر كان محاربة المؤتمر وليس محاربة العدو، كما يغفل دورها فى المعركة ومساهمتها فى تحقيق الانتصار. ولا يملك القارئ إلا ن يتساءل.. أنه لو صحت مثل تلك الادعاءات فلماذا إذن اعتقل زعيمها وأبقى فى المعتقل رغم انتهاء مدة الحكم عليه إلى أن

توفى؟ ولماذا لم يتبنها النظام كما تبنى حركة إنكاثا لو أن هدفها الأول كان فعلا محاربة المؤتمر وكانت دوافع أعضائها هى الغيرة والانتقام.

ورغم ذلك لم أملك -وأنا أقرأ تلك الملحمة- التغلب على مشاعر الخزى والضآلة والانهزام، من تخلف أساليبنا وخواء شعاراتنا، من جهلنا بأنفسنا وبأهدافنا وبعالمنا، من تفرقنا وتطاحننا ونحن أبناء العرق الواحد واللغة الواحدة والتاريخ المشترك، من ضياع الطريق من تحت أقدامنا والهزيمة التى هى واقعنا.

تحية لك مانديللا.. تحية لك جنوب إفريقيا... تحية لكل من ساهم فى تلك المعركة الملحمية من أجل الإنسان.

فاطمة نصر

مايو ١٩٩٥